قصيدة

ويلتقون على جدران بيروت ...

اقتربت من أسوارها ورجوتها أن لا تحولني الى ملصق او شهيدة أو بقايا امرأة .

وعدتني بيروت والمطر يمزق جبهتهـــا . وعدتني دون أن تبتسم أو تهزأ .

وجهك ،

وجهك يلون الطرق والساحات وما بقي من المدينة، يهاجمني الآن ليمنع عني لذة النسيـــان ، بل ليذكرني ــ ان كنت قد نسيت ــ بما سبق الرحيل والغربة .

هم يلاقونني ويحدثونني عنك ، والبارحة قـالوا لي : لقد قاتل حتى آخر رصاصة .

واضافوا : كثيرون قاتلوا حتى آخر رصاصة .

وثالث : هل نفد الرصاص هنا ؟

تجاوزوا لحظة حزني الى أشيـــاء أخرى وظللت ممددة في الذاكرة تلون الطرق والساحات وما بقي من المدينـــة .

* * *

يغنون ويموتون
يضحكون ويموتون
يعشقون ويموتون

يطوح الموت بهم كالحصان الجامح ، يلقي بهم في ساحات الانتظار ، يقفـــون في صفوف طويلة بانتظـار الموت ، ينتظرون ، وفي انتظار الموت يحبون ويتزوجون ويلدون نجوما .

* * *

اقتربت من صدرها ــ بيروت . رجـــوتها أن لا تحولني الى ملصق أو شهيدة أو بقايا امرأة .

ووعدتني بذلك .

كنا نلتقي فـــي أطرافها ونخـــاف ان نعبر الى وجهها الحقيقـــي المصبوغ بالـــــدم والتساؤل والملل والجنون .

كنت تضمني اليك بفزع وتقول لي : « ان مســام جلدك تزهر موتا لذيذا ، فيا ايتها المرأة الميدوزا لا تجعلي مني حجرا » . وذات يـــــوم « أغمضت عيني برعب واستسلمت لزخات المطر التي كانت تمزق صدر غسان كنفاني ، وعندما فتحتهما لم أجد غسان ورأيت جثتـي تنزف غربة » .

قلت لي : لنلتق دون طقوس ولا ذكريات .

كنت املك ذاكرتي ، ففتحت لك ذراعي واستقبلتك انت والمطر والصقيع واصداء رصاص طائش .

حميده نعنع

عندما تمردت الذاكرة رأيت المتوسط يعانقك كما يعانق بيروت ولم تكن جدرانها مقبرة في ذلك اليوم .
هذا زمن اللاتحقق ، وهذه حرب الذاكرة .

وها أنذا بعد سنين هنا يجرني شارع الحمراء في مقاهيه وطرقاته وأتنفس رائحة جلدك بشغف ، محاولة تناسي زخات الرصاص التي تمزق جسد رجل عابر على الطرف الآخر من الرصيف .

أبعد رائحة الدم عن أنفي فتلفحني ريح حارة تغرق أصابعي بالماء . تتوقف « أسماء » عن السير .
ـ هناك على الرصيف الآخر وأمام مبنى الكنيسة استشهد صاحبك .

وتتم حديثها :
ـ اضطررت أن أشتري الحذاء بسعر أعلى هذا العام لان الاحذية الرخيصة تؤلم قدمي .

نعبرنا معا لحظة حزن ونحن ننظر جثة الرجل على الرصيف ثم نسرع خطانا باتجاه محطة تكسي بعد أن تذكرنا ان « مي » قد دعتنا البارحة الى الغداء ووعدتنا أن تطهو لنا بعض المأكولات الفلسطينية .

* * *

كان أبي يقول دائما : « ما الموت الا خيانة عظمى » .
قلت هذا لـ « أسماء » ، ودون أن تحول نظرها عن اعلان يتصدر زاوية الشارع أجابتني :
ـ هل ترغبين بحضور فيلم عربي ؟

ثم أتمت :
ـ قادمة من الصقيع وتجيدين الحديث والذكريات.

* * *

كان باب المسجد مقفلا ، وأصواتنا ترتد الينا تغني ، وبيروت تحولت الى « ميدوزا » . بيني وبين جدرانها مسافات ضوئية ، ووجهك مصلوب على الحجارة الباردة . وجهك أو وجه من يشبهك .
أخشاك وأنتقل الى سريري . أرى جسدي تحت الضوء جثة أو جنازة .

* * *

« كان الربيع يزهر في عينيه . قامته مديدة تكاد تطاول شجر الحور . دائم الحديث عن الحرب ، يحبك ويحب عمان وبعض بعض بيروت » .
آه ....
تتم أسماء :
ـ حاولي أن تغني . لقد اكتشفنا هنا ان الغناء خير دواء للنسيان .
آه يا زمن الذاكرة !

سقط برج الكنيسة تحت عيني وبدت بيروت في تلك اللحظة في غاية الحب ، تمردت على حزني عليك ، وحكيت لأسماء عن صديقي الانكليزي الذي كاد يقتله عشقه لاشعار « اليوت » عندما لم يجد سببا آخر للموت .
وأضفت :
ـ هو ينتظرني .

اكتشفت أسماء خيبتي وبدأت تتلو بعض آيات من القرآن علني أشفى .

وهكذا ، يمتد النهار في بيروت ويتصل بالبحر حتى النهاية الزرقاء حيث من النهاية نخرج نحن وأجسادنا ، ونتمنى أن تموت ذاكرتنا .
ـ أهكذا تموتون ؟

قالت أسماء :
ـ هكذا يموتون .
ـ أهكذا تعشقون ؟

قالت أسماء :
ـ هكذا يعشقون .

* * *

رأيت البحر يقترب منا ، وكان الزمن يومها زمن انتظار الحرب ، وكنا امرأة ورجلا تتحول الشمس في جسديهما الى ماء وحشيش وأزهار برية .

يلاحقني الصمت في هذه اللحظة وأنا أبحث عنك، وأسماء تؤكد لي انك قدمت وتحول وجهك الى ملصق جميل ملون على جدران بيروت ، وبانتظار أن نذهب اليك أتذكر .

« فلسطينيون هؤلاء الفلسطينيون حتى الموت
فلسطينيون حتى الفجيعة والشهوة والحب » .

في مكان ما في أطراف شارع الحمراء سمعت صوت رجل يتحدث عن أم كلثوم والحشيش والحب ، لكن هدير الطائرات منعني من التلذذ بسماع ما بقي من حكايته ، وأسرعنا أنا وأسماء لنلحق بوليمة الغداء .

عندما سمحت لنا ظروف اللحظة أن نعبر أمام الكنيسة سمعت صوت المقرىء يأتيني عاجلا كنهاية محتومة :
« ولا تحسبن الذين قتلوا ... » .
ـ أسماء ! لا أستطيع أن أتذكر ان جسده كان للطعنات والرصاص والموت .
ـ لكنه مات يا فاطمة ولا مأساة في ذلك . صهل قبل أن يلفظ أنفاسه الاخيرة ، ولأجلك أغمضت عينيه بيدي . حدثني عن وجهك والموت اللذيذ للشهداء تحت القنابل .

فجأة ، انطلقت رصاصة من مكان ما وجرحت جسدي باتجاه أسماء ، احتميت بها فأنا لم أتعود الموت بعد . اكتشفت وأنا ألتصق بها انني ما زلت أنبض كفراشة مثخنة بالضوء .

* * *

اقترب مني عامل الفندق وقدم لي بطاقة تركها أحدهم .

قرأت على وجهها عنوانك : « جدار المدينة الغربي ـ هو » .

ولم أبك .

قرأت على وجهها صوتك وهو يحدثني عن الغربة في الموت ، عن الغربة في المنفى ..

« لا ترحلي ، الحياة مستحبة معنا كما هو الموت. هناك ستجلدك الذاكرة وتفتقدينني » .

ولم أبك .

تركني عامل الفندق بعد أن نبهني الى خطر قراءة بطاقات الاموات .

* * *

سقط الثلج غزيرا على جزيرة « سان لويس » وقال صديقي : « بيروت مدينة مسبية » .

وصدقته .

غمرت جسدي بالثلج وحدثته عنك . كنت ذاكرتي وجسدي وصوتي ووطني .

قبل صديقي اقتراحي بالرحيل الى مدن لا تعرف الحرب . وعبثا حاولنا أن نتذكر واحدة ، لكن الذاكرة تماما كالاصدقاء الذين يموتون دون أن يخبرونا .

* * *

منذ وصولي الى بيروت وانا أبحث عنك ، وعبثا تحاول « أسماء » اقناعي بالعدول عن ذلك . عندما يئست مني أخبرتني ـ حسب كل المواصفات ـ ان وجهك يسكن جدارا بعيدا في الطرف الغربي من المدينة .

ـ قولي يا أسماء ، هل كان حنونا قبل الموت ؟

ـ مضى الليل حتى الهزيع الاخير منه، واستيقظ جسده في مياه البحر . كان علينا أن نحمي كمينا في منطقة الشياح ، وكنا ثلاثة يزرعهم الامل . أحدنا أصابته رصاصة لم ندر مصدرها ، أو لأقل كما تعودنا : رصاصة طائشة .

ـ هل مات ؟

ـ أغمض عينيه .

ـ الثاني ابتلع سكينا .

ـ هل مات ؟

ـ أغمض عينيه .

ـ وصديقك ؟

ـ ظل يضحك من البحر والموت والانشودة .

ـ ولكنه مات .

* * *

نظرت « أسماء » الى حقائبي المعدة للسفر ، وقالت لي :

ـ ستهربين كالعادة . لن يجديك السفر شيئا . انسي باريس وتحدثي عن بيروت .

في زاوية المقهى الذي اتسع لجثتينا أنا وهي قال مصطفى أشعارا لم أفهم معناها جيدا وقدرت انها تعنيك .

« يا أسفي عندما مات البحر الميت
هبت المجدلية تفرش شعرها على قدميك
يا أسفي عندما مات البحر الآخر
ورأيت بيروت تقذف بحزنها على قدميك » .

منذ بدأ الزمن الفلسطيني كف الحزن عن أن يكون حزنا . وتقول « أسماء » : ان البحر كف عن مزاحه وعاد الى جده ، أذكرها : الموت خيانة . تذكرني : الغربة خيانة وصهيل الحصان الجامح خيانة أيضا .

تشق بنا السيارة الفلسطينية أرصفة الموت ، وأحدث أصدقائي عن شيء من ذكريات المدن الثلجية ولكنهم ينفثون سجائرهم بشره ويرددون أشعار « مصطفى » دون أسى .

ـ وأين رحلت جدائلك ؟

ـ القيت بها الى البحر .

ـ وهل كان البحر حنونا ؟

ـ تماما كوجه صاحبك يوم الموت .

ندخل جميعا مخيم « صبرا » وأرى جدران الانظمة العربية تعلو لتخنق من بقي من سكان فلسطين. أحييهم .

كنت صادقة الحزن واعتبروني بحياد مطلق مندوبة هيئة الامم المتحدة .

حدثوني عن الثورة وقال لي أصغرهم سنا :

ـ ما الفرق بين مندوب الامم المتحدة وتجار الحرب ؟

فكرت قليلا وقررت : لا فرق .

ـ عمّ يتحدث مخيم صبرا عندما يصحو من النوم ؟

سؤال صحفي وجيه لغبية مثلك ، قالت أسماء :

ـ يحصون أطفالهم ثم يبدأون بأنفسهم . يحصون بنادقهم ويشربون القهوة ، وما بين القهوة وأول رغيف

خبز يطلقون زغاريد فلسطينية لاول جنازة تمر بهم ... يتبعون الزغاريد بقليل من الرصاص .

حاولت أن أحدثهم عن الخلاف الصيني السوفياتي ، عن الحرية الجنسية ، عن الديمقراطية المركزية ، عن مساندة اليسار العالمي لقضيتنا .

أوقفتني أسماء عن الثرثرة وقالت لي :

ـ دعيك منهم ، يصنعون موتهم وحياتهم . لم يفتحوا كتابا لكنهم يقرأون الشعر . لم يروا صحيفة لكنهم يعرفون عدد قتلاهم . لم يسافروا مثلك ولكنهم يقولون أشياء كثيرة عن عنصرية الغرب .

باختصار : يرسلون بانفسهم الى الموت ويلتقون على جدران بيروت .

في طريقنا من « صبرا » الى « الجامعة العربية » أشارت أسماء الى شجرة صبير عتيقة في طرف الشارع وقالت لي :

ـ هنا مات صاحبك .

ـ ولكنك قلت انه مات أمام الكنيسة ...

صرخت في وجهي بجنون :

ـ لا تحملي ذاكرتك وتتنزهي في شوارع بيروت. لو كان لنا ذاكرة لقتلنا الحزن ... نلتمّ في المساء كفرقى ونسكر ، نتحدث عن الجيران وأسعار الزيتون وآخر أغاني فيروز ، وعند الهزيع الاخير من الليل نودع بعضنا لنرحل الى مقبرة ما بانتظار الموت .

* * *

انبعثت الموسيقى من جدران المكان ورقصنا معا « زوربا » . رأيت جسدك تحت الضوء ... جسدي تحت الضوء ... جسدها تحت الضوء . تآلفنا واصبحنا جميعا فلسطينيين . انطلقنا الى الشارع فالتقينا بالموت .

* * *

ـ هل تأتي ؟

قالت أسماء :

ـ سيأتي .

قرأت عشرات الصفحات من كتاب اغريقي وانتظرت .

أزهر البحر في جسده ولم يكن قد مات بعد .

خرجت القدس من اسفلت الشارع مرتدية ثوبها الفلسطيني ودعتني اليها .

عيناك
نحن
انت
انا
الذي كنت والذي أكونه .
بحثت عن أسماء لنعود معا وانتظرت . لم تأت .
بحثت عن خالد لنعود معا .
لم يأت .
بحثت عن هادي لنعود معا .
لم يأت .

قلت حسب كل المواصفات : اذا كانوا لم يسكنوا جدران المدينة بعد . فسيلحقون بي .

مضينا معا القدس وأنا ، رأيت شعرها يغطي كتفي وصدري وعيني . تداولنا الحزن والاسئلة وسيرة الاصدقاء ، امتزجنا معا وحولتني الى مجدلية مقاتلة .

حدثيني عنه .
حدثتني عنهم .
حدثيني أكثر .
حدثتني عنكم ، فقررت أن أعود معها .
هل تأتي أسماء ؟

محمد كامل الخطيب

عبد الرزاق عيد

في دراستهما

عالم حنا مينه الروائي

صدر حديثا